البروفسور أفنير غلعادي: تقلقني بربرية هذه الحرب، واللغة الوحيدة التي نتقنها هي القوة

ولد البروفسور أفنير غلعادي عام ١٩٤٧ في تل أبيب، درس موضوعي اللغة العربية والثقافة الإسلامية في الجامعة العبرية في القدس، ونال شهادة الدكتورة عن أطروحة كتبها عن "الفكر التربوي في فلسفة ابي حامد الغزالي".

وفي جامعة أكسفورد وضع أطروحة عن "الطفولة في الثقافة الإسلامية حتى القرن السادس عشر"، وقد حرر مخطوطات ونصوصا عن طب الأطفال ومكانة الطفل في المجتمع الإسلامي، وكشف في أطروحته عن تراث غني في موضوع لم يلتفت إليه أحد من قبل، وهو المواساة عند فقد الطفل.

ومن هذه النصوص والكتب كتاب محمد المنبجي، "تسلية أهل المصائب" وكتاب محمد القيسي، "برد الأكباد عند فقد الأولاد" وكتاب إبن أبي الحجلة، "سلوة الحزين في موت البنين" وكتاب جلال الدين السيوطي، "فضل الجلد في فقد الولد"، وكتاب مرعي بن يوسف المقدسي، "سلوان المصاب بفرقة الأحباب" وغير ذلك من نصوص.

يحاضر غلعادي في جامعة حيفا في موضوع الثقافة الإسلامية في العصور الوسطى في قسم دراسات الشرق الأوسط، وقد كان رئيسا له حتى العام الفائت.

يقول البروفسور غلعادي: "لقد توجهت إلى دراسة الثقافة العربية والإسلامية بسبب تنكر المجتمع الإسرائيلي لهذه الثقافة." وعن الحزن عند فقد الأطفال في الثقافة الإسلامية يقول: "بالرغم من أن طقوس الحزن والأسى على فقد الأقارب قد يفسر على أنه احتجاج على مشيئة الله، إلا أن الإسلام يعترف بشرعية التعبير عن الأحاسيس والمشاعر وفي الحديث النبوي والسيرة النبوية نصوص تؤكد ذلك، وعليها اعتمد الكتاب المسلمون في ما بعد"

وقد بلغ مجموع النصوص التي عثر عليها حوالي ثلاثين نصا

التدمير في لبنان : المجتمع الاسرائيلي لم يتعلم الدرس.

تكشف عن نقاشات فلسفية عميقة حول هذه المسألة في عصور كان فيها موت الأطفال ظاهرة طبيعية شائعة ومؤلمة، وفي الثقافة الإسلامية والعربية كان فقد الطفل حدثا مؤثرا وله انعكاسات اجتماعية وعاطفية على الأهل، بعكس ما كان ادعاه الباحث الفرنسي فيليب أرييس، أن موت الاطفال في العصور الوسطى وبسبب النسبة العالية في فرنسا وأوروبا كان حدثا عابرا في حياة الأهل، وتعاملوا معه بلا مبالاة.

ولم تتوقف أبحاث البروفسور غلعادي في الثقافة الإسلامية عند الأطفال، بل يواصل الكشف عن المزيد من مكنونات الثقافة العربية، وهو منشغل ببحث شامل عن الرضاعة في الثقافة الإسلامية العربية والأمومة وعن "القابلة" الإسلامية ودورها الطبي والاجتماعي.

البروفسور غلعادي يتعامل باحترام كبير مع الثقافة الإسلامية العربية في مجتمع ونظام يعاديان هذه الثقافة، ويتعاملان معها باستعلاء، فكيف يعرف هويته في هذه الحالة؟

هكذا بدأ حوارنا معه وقد جرى في حيفا في بداية الأسبوع الرابع للعدوان الإسرائيلي على لبنان، وبين صفارة وصفارة تحذر من سقوط الكاتيوشا على مدينة حيفا.

"أنا إسرائيلي، حيفاوي، يهودي، مع أن هذا العنصر لا يشكل مركبا مهماً في هويتي. أنا يهودي خامل وما يربطني بيهوديتي هو اللغة العبرية وقراءاتي للأدب اليهودي ، انني أدرك العلاقة الوطيدة بين الإسلام واليهودية، فالإسلام أقرب إلى اليهودية من المسيحية، وعلى طول العصور كان هناك تأثير متبادل.

ق.ا: كيف ترى هذه الحرب؟

غلعادي: أنا غاضب جدا، فليس مريحا أن تعيش تحت القصف، ولا أن ترى الآخرين يقصفون ويعانون. وأنا غاضب لأنها حرب أخرى تضاف إلى الحروب السابقة، وأنا أرى ذلك في سياق تاريخي عام يرتبط بتاريخ الصهيونية وتاريخ العلاقات اليهودية الفلسطينية قبل وبعد العام ١٩٤٨، وأعرف من أين يأتي كل ذلك: من هذه العقيدة الاستعلائية.

ما يقوم به الجيش الإسرائيلي ردا على اختطاف جنديين هو عمل بربري، انه حملة انتقام لن تؤدي الا الى كوارث، فالذين يطالبون باستمرار الرد العسكري لا يفهمون الى أين يمكن أن يؤدي كل ذلك.

ان اللغة الوحيدة التي نتكلّمها هي لغة القوة، مفرداتنا هي: أن نكسحهم، ننظف المنطقة، وبعد ذلك نتكلم، لماذا لا يتم العكس؟ إنني أتابع ما يحدث في لبنان وأتساءل: لماذا لا يمكن التحدث معهم (مع حزب الله)، لماذا كلما وقع أمر على الحدود يحرقون لبنان؟ كذلك يغضبني أيضا بربرية الحرب والجيش الذي تحول إلى منظمة إرهابية، يتصرف بدون خطوط حمراء.. كيف يمكن لجيش نظامي أن يتباهى بأنه اقتحم مستشفى (مستشفى الحكمة في مدينة بعلبك)، في الحرب هناك حدود ومحرمات أيضا، فما هو ذنب مئات ألوف المواطنين العزل الذين حولوهم إلى لاجئين في وطنهم؟ ما ذنب مئات القتلى وآلاف الجرحى، ولماذا التدمير العشوائي للمدن والقرى اللبنانية؟

هناك حالة من الانفلات، فحتى لو أننا لم نبادر إلى الحرب، فقد كان علينا أن نضبط تطورها، أن هذا يؤلمني ويؤرقني كثيرا كإسرائيلي. إن مليون ونصف مليون إسرائيلي يمضون أوقاتهم في الملاجىء لأكثر من ثلاثة أسابيع ، وهم معرضون للضرب، وقد أصيب العديد منهم.

هذه الحكومة قررت كما يبدو أن تدير الحرب على ظهورنا، وتريد أن تبني نفسها على الدم، فهي خاضت الحرب دون أن تعد وسائل ملائمة لحمايتنا من الصواريخ والكاتيوشا، انها تعرضنا للضرب هنا في حيفا وفي عكا ومجد الكروم دون أن توفر لنا أية حماية، فمن ناحية عسكرية فشلت هذه الحكومة فشلا ذريعا وظهر ضعف هذا الجيش الذي لا يستطيع أن ينتصر كما يبدو في حرب العصابات، لا أعتقد أنه كانت حرب كهذه منذ عام ١٩٤٨، ولا بد أن تسأل بعد الحرب: لماذا فعلتم ذلك؟ إنه أمر رهيب.

ق.ا: كباحث في الفكر الإسلامي، كيف تفهم الخطاب الشيعي في لبنان؟

غلعادي: لو كنت مواطنا لبنانيا لما وافقت على أن يصل أي تيار

كنت متشائما واليوم يزداد تشاؤمي، فالمجتمع الإسرائيلي لا يتعلم الدرس، في لبنان نزرع الكراهية للأجيال القادمة، وفي المناطق الفلسطينية المحتلة أصبح الاحتلال أشد شراسة. لقد أخلت إسرائيل المستوطنات من قطاع غزة ولكن دون أن تتفاوض مع الفلسطينيين، فلو تم الانسحاب باتفاق متبادل لكانت النتائج أفضل، ولو تحدثوا مع حكومة حماس لبدا كل شيء بشكل مختلف، اليوم يحاصرون غزة ويمنعون دخول المواد الغذائية ويهدمون الاقتصاد الفلسطيني، وهذا سيؤدي إلى نشوء قيادة أكثر تطرفا، والى حقد شعبي على إسرائيل.

أصولي إلى مواقع الحكم، مثلما أنني أعارض أن يتحكم بحياتي هنا أصولي يهودي، ويقلقني جدا تأثير الأصوليين المسيحيين على سياسة البيت الأبيض. إن عودة الأصولية في الشرق تثير قلقي، ومع أنني أحترم الديانات والمشاعر الدينية وأقدر التراث الديني لكافة الشعوب وبخاصة التراث الإسلامي الذي أعرفه جيدا، إلا أنني مع فصل الدين عن الدولة.

إن حلم حسن نصر الله الغيبي لا يقنعني، وكذلك الحلم الفلسطيني الغيبي خلافا للحلم الفلسطيني العلماني الذي أتماثل معه، مع الفارق بين حزب الله وحكومة حماس التي انتخبت بشكل ديمقراطي. أنا لا أتمنى للبنان أن يحكمه حزب الله، مثلما أنني لا أتمنى أن يحكم إسرائيل تيار ديني يهودي. أقول ذلك كمواطن إسرائيلي يتضامن مع معاناة الشعب اللبناني .

ق.ا: هل هناك دور لإسرائيل في تقوية هذه التيارات؟

غلعادي: نعم لإسرائيل دور كبير، فبدلا من أن تتحاور مع القوى العقلانية والواقعية في العالم العربي تقوم بضربها ومحاربتها، فلماذا لا تفاوض الحكومة اللبنانية وتتعامل معها كدولة مستقلة وذات سيادة؟ لماذا تدمر الدولة اللبنانية وتهدم بناها التحتية المدنية؟ قالوا لنا أن أقلية لبنانية تؤيد حزب الله ولكن اليوم كل اللبنانيين مع حزب الله، هل إسرائيل مع التأييد اللبناني لحزب الله أم ضده؟ كيف يقنعوننا بنتائج هذه الحرب؟

*** كيف تقرأ مستقبل العلاقة بين إسرائيل والعالم العربي؟**

– أنا متشائم، كنت متشائما واليوم يزداد تشاؤمي، فالمجتمع الإسرائيلي لا يتعلم الدرس، في لبنان نزرع الكراهية للأجيال القادمة، وفي المناطق الفلسطينية المحتلة أصبح الاحتلال أشد شراسة. لقد أخلت إسرائيل المستوطنات من قطاع غزة ولكن دون أن تتفاوض مع الفلسطينيين، فلو تم الانسحاب باتفاق متبادل لكانت النتائج أفضل، ولو تحدثوا مع حكومة حماس لبدا كل شيء بشكل مختلف، اليوم يحاصرون غزة ويمنعون دخول المواد الغذائية ويهدمون الاقتصاد الفلسطيني، وهذا سيؤدي إلى نشوء قيادة أكثر تطرفا، والى حقد شعبي على إسرائيل.

*** ما هي جذور هذه الممارسات؟**

– المواقف الشوفينية التي يطلقها السياسيون في إسرائيل وغيرهم في الاعلام والنظرة الاستعلائية والاستفراد بالقوة والاستهتار بالآخرين والتنكر للبيئة الإنسانية والانطواء وعدم القدرة على تفهم معاناة الغير، كل ذلك له جذور في التربية والمجتمع الإسرائيليين. إن هذا السلوك ليس ناجما عن دوافع آنية، بل هو مغروس في الثقافة الاجتماعية الإسرائيلية.

*** هل يمكن أن يتغير هذا الوضع؟**

– يجب أن يكون التغيير جذريا وعميقا، لقد كنت متفائلا عندما انتخبت حكومة مدنية برئاسة أولمرت ووزير أمن ليس جنرالا هو عمير بيرتس، ولكنني سرعان ما أصبت بخيبة أمل قاسية، هذه عودة إلى الوراء. أرجو أن يستيقظ المجتمع الإسرائيلي بعد هذه الهزة.

*** كيف تفسر صمت المثقفين الإسرائيليين؟**

– هذه ظاهرة معروفة في المجتمع الإسرائيلي، فعندما يعلو صوت المدافع تختفي أصوات المبدعين أو تصبح هامشية جدا، والصحافيون يلبسون بزّات عسكرية، ويحتل المنابر الجنرالات والشخصيات العسكرية وليس المدنية، الرجال وليس النساء، السياسيون وليس المثقفين.

وإذا منحت هذه المنابر مكانا للمثقفين فلأولئك الذين يؤيدون الحرب وليس لمناهضيها، في الحرب نتحول إلى مجتمع مقاتل ومجند للحرب. حتى في الجامعة التي أعمل بها، هناك صمت ولا تسمع أصواتاً كثيرة ضد الحرب، إنهم يصبحون جزءاً من الإجماع العام.

زراعة الكراهية.

*** أين تكمن المشكلة الأساس؟**

– المشكلة في الأيديولوجيا الصهيونية، التي تتنكر لأهل هذه البلاد، وكانت تنكرت لهم قبل النكبة حين زعمت أن هدفها هو توطين الشعب اليهودي في أرض قاحلة ودورها الحضاري هو إحياء هذه الصحراء، هذه العقيدة هي الأساس في سياسة الانطواء والعزلة عن الفضاء في هذا الشرق العربي، وقد نشأت أيضا في ظروف موضوعية في نهاية القرن التاسع عشر وما حدث لليهود في القرن العشرين، كل ذلك بلور ذهنية الضحية الأبدية، وبطبيعة الحال هذه الذهنية تدفع نحو العزلة، وحتى برنامج أولمرت الانطوائي يعبر عن عدم رغبة في الجلوس مع الطرف الآخر، والوهم بأنه قادر على رسم خارطة الشرق الأوسط من جديد.

قال أولمرت: الحرب خلقت واقعا جديدا في الشرق الأوسط، نعم يوجد واقع جديد ولكنه أسوأ وأخطر مما كان، على ضوء هذا الوضع أنا متشائم جداً، لأن الصحوة من هذا الواقع ستكون مؤلمة جد، وستكلف الإسرائيليين واللبنانيين ثمنا باهظا من الدم، إلا إذا اتسعت دائرة الاحتجاج الشعبي التي من شأنها أن توقف التدهور قبل فوات الأوان. إن هذا الوضع يهدد الأنظمة العربية القائمة وستحل محلها أنظمة دينية سوف تعقد الوضع في الشرق الأوسط.

*** إلى متى ستظل إسرائيل في خدمة السياسة الأميركية؟**

– لا أعرف إلى متى وكيف يتم التنسيق بين الجيش الإسرائيلي والنظام الأميركي. الولايات المتحدة تسلح الجيش الإسرائيلي بأحدث الأسلحة، ولا بد أن هناك اتفاقا على العديد من الأمور، وكذلك هناك التقاء في المصالح الأميركية والإسرائيلية. إن إسرائيل هي ذراع لأميركا في الشرق الأوسط.

*** في العام القادم يكون قد مضى أربعون عاما على احتلال المناطق الفلسطينية، ما هي النهاية؟**

– الانسحاب إلى حدود الرابع من حزيران وإقامة الدولة الفلسطينية.

*** وماذا عن النكبة واللاجئين من العام ١٩٤٨؟**

– على إسرائيل أن تعترف بما اقترفته عام ١٩٤٨ وأن تبدي استعدادها لحل هذه المشكلة، وهناك عدة طرق للوصول إلى حل لمشكلة اللاجئين، المهم أن يكون استعداد للتكفير عن الخطيئة ثم التوجه إلى الخطوات العملية التي قد تكون معقدة لكنها ممكنة، لقد سمعت رئيس بلدية حيفا يونا ياهف يقول اننا على استعداد لتحمل قسطنا في عودة اللاجئين إلى حيفا، وأنا لا أخشى عودة آلاف اللاجئين إلى البلاد.

*** هل تقبل بدولة علمانية لكل مواطنيها؟**

– أنا على استعداد للعيش في دولة علمانية ديمقراطية، ولكنني أظن أن هذا ليس عمليا في هذه المرحلة، المهم تصفية الاحتلال والتوجه إلى طاولة المفاوضات للتخطيط لمستقبل أفضل.

أجرى الحوار: س . ن